

15

# شهادة الأنبياء عليهم السلام

سلسلة دروس في فكر الشهيد الصدر قدس سره






الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org



# شهادة الأنبياء عليهم السلام

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧




الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب: شهادة الأنبياء عليهم السلام
إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة
نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى: شباط ٢٠١١م/١٤٣٢هـ

# شهادة الأنبياء عليهم السلام

دروس من فكر الشهيد

السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org



**المقدّمة**

الحمـد للّه ربّ العالميـن والصـلاة والسـلام على الرسـول المصطفى محمّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

إنّ مـن مبادىء الإسلام الثابتة مبدأ (**الخلافـة العامّة**)، المرتكز على أساس الإيمان بأنَّ اللّه تعالى هو المالك الحقيقيّ والوحيد للكون وما فيه من ثروات، وأنّه سبحانه وتعالى قد جعل المجتمع التوحيديّ المتناسق والمتوازي يرتكز على خطّين ربّانيّين رئيسين:

**الخطّ الأوّل**: خلافة الإنسان على الأرض - سنتعرّض له من خلال هذا البحـث - حيث استحقّ الإنسـان شرف هذه الخلافـة لأنّ الاستخلاف يعني الإحساس بالمسؤوليّة وتحمّل الأمانـة، والإنسان هو الكائن الأرضيّ المتميّز بالإحساس بالمسؤوليّـة، ولديـه القـدرة على التصـرّف في الأمانـة - الّتي يتحمّلهـا - وفقـاً لأوامر اللّه الّـذي استخلفه على الكون وائتمنـه على كلّ ما يحويه من خيرات وطيّبات.

**الخطّ الثاني**: شهادة الأنبياء عليهم السلام ودورهم التربويّ والثقافيّ في هداية المجتمـع التوحيديّ - والذي سوف نتعرّض له فـي بحث لاحق - الّذي تُشكّل خلافة الإنسان فيه حجر الزاوية، ويأتي دور الأئمّة عليهم السلام عقيب الأنبياء عليهم السلام للمحافظة على رسالة الإسلام وصونها من التحريف والضياع.

أمّـا في عصر غيبة المعصـوم عليه السلام، فإنّ من يتحمّـل مسؤوليّة الإرشاد والتبليـغ الدينـيّ للمجتمـع التوحيـديّ هـم الفقهـاء والعلماء ورثـة الأنبياء والأوليـاء، بحيث يقومـون بالواجب الشرعيّ الملقى علـى عاتقهم في توجيه المجتمع وتوعيته وتثقيفه على ضوء القيم السامية للإسلام العظيم.

ولقد رسم الإسلام هدفاً عامّاً لمسار خلافة الإنسان على الأرض، يقوم على أساس اعتبار الخير والعدل والقوّة، وهو في حركة لا تتوقّف أبداً؛ لأنّها متّجهة نحو المطلق، وأيّ هدف آخر لهذا المسار سوى المطلق - الله سبحانه وتعالى - سوف يكون هدفاً محدوداً، وبالتالي سوف يُجمّد الحركة ويوقف عملية النموّ في خلافة الإنسان.

لذا على الجماعة الّتي تتحمّل مسؤوليّة أمانة الخلافة، أنْ توفّر لهذه الحركة الدائبة نحو هدفها المطلق والكبير كلّ الشروط الموضوعيّة، وتُحقّق لها مناخها اللازم، وتصوغ العلاقات الاجتماعيّة على أساس الرؤية القرآنيّة - كما سيأتي توضيحها في طيّات هذه الدراسة - للخلافة الربّانيّة.

وعلى ضوء ذلك قام مركز نون للتّأليف والترجمة باختيار هذه الدراسة - الّتي بين يدَي القارىء العزيز - من كلمات الشهيد الصدر، حيث تمّ تهذيبها وتشذيبها من بعض المكرّرات، مع التصرّف البسيط بالعبارة بغية المحافظة قدر الإمكان على عبارة الشهيد، هذا إلى جانب إضافة بعض العناوين للفقرات والمواضيع، وإعادة ترتيب بعض الأبحاث المترامية، وجمعها في بحث واحد.

لذا تعدّ هذه الدراسة تلخيصاً لدراسة الشهيد السيّد محمّد باقر الصّدر (رضوان الله عليه)، والّتي قدّم فيها أطروحته حول بناء الدولة الإسلاميّة المعاصرة. وقد نُشرت هذه الدراسة ضمن كتاب (الإسلام يقود الحياة)، وهو من منشورات دار التعارف، بيروت - لبنان، طبع في العام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

**مركز نون للتأليف والترجمة**

# الأهداف

١ - التعرّف إلى مفهوم خطّ الشهادة في القرآن وأصنافها ودورها.

٢ - التعرّف إلى الفوارق بين أدوار الشهادة.

٣ - التعرّف إلى طبيعة الاندماج بين خطّي الخلافة والشهادة.

**مفهوم خطّ الشهادة في القرآن:**

وضـع الله سبحانـه إلى جانـب خطّ الخلافـة - خلافة الإنسـان على الأرض - خـطّ الشهادة، الّـذي يُمثّل التدخّل الربّانـيّ من أجل صيانـة الإنسان الخليفة مـن الانحراف، وتوجيهـه نحو أهداف الخلافة الرشيـدة، فالله تعالى يعلم مـا توسوس به نفس الإنسان، ومـا تزخر به مـن إمكانات ومشاعـر، وما يتأثّر به من مغريات وشهوات، وما يُصاب به مـن ألوان الضعـف والانحلال، وإذا تُـرك الإنسان ليُمارس دوره في الخلافة بدون توجيه وهدى كان خلقه عبثاً، ومجرّد تكريس للنزوات، والشهوات، وألوان الاستغلال.

ومـا لم يحصـل تدخّل ربّانيّ - من خـلال خطّ الشهادة - لهدايـة الإنسـان الخليفة فـي مسيره، فإنّـه سوف يخسر كلّ الأهـداف الكبيرة الّتي رُسمت له في بداية الطريق. قال

تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١).

**أصناف الشهداء:**

صنّف القرآن الكريم الشهداء إلى ثلاثة أصناف، فقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾(٢).

**والأصناف الثلاثة على ضوء هذه الآية الكريمة، هم:**

أ - النبيّون والرسل.

ب - الربّانيّون؛ أي الأئمّة الّذين يُعتبرون امتداداً ربّانيّاً للنبيّ في هذا الخطّ.

ج - الأحبار؛ أي علماء الشريعة والفقهاء الّذين يُعتبرون امتداداً رشيداً للنبيّ والإمام في خطّ الشهادة.

الدور المشترك بين أصناف الشهداء:

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

يتمثّل الدور المشترك بين الأصناف الثلاثة من الشهداء فيما يلي:

**أوّلاً**: استيعـاب الرسالة السماويّـة والحفاظ عليها، قال تعـالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾[1].

**ثانياً**: الإشراف على ممارسة الإنسان لدوره في الخلافة، ومسؤوليّـة إعطـاء التوجيه بالقـدر الّذي يتّصـل بالرسالة وأحكامها ومفاهيمها.

**ثالثـاً**: التدخّل لمقاومة الانحـراف، واتّخاذ كلّ التدابير الممكنة من أجل سلامة المسيرة.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

## الفوارق بين الأصناف الثلاثة في أداء دور الشهادة:

بالرغم من وجود المحتوى المشترك لدور الشهداء بأصنافهم الثلاثة (الأنبياء - الأئمّة - العلماء)، إلّا أنّه توجد فروق جوهريّة فيما بينهم في طريقة أداء هذا الدور، وهي كالتّالي:

**الفرق الأوّل:** أنّ النبيّ هو حامل الرسالة من السماء باختيار الله تعالى له؛ بينما الإمام هو المستودَع للرسالة الربّانيّة، أمّا العالِم فهو الإنسان الّذي اكتسب ـ من خلال جهدٍ بشريٍّ ومعاناة طويلة الأمد ـ استيعاباً حيّاً، وشاملاً، ومتحرّكاً للإسلام ومصادره، وورعاً معمّقاً يُروّض نفسه عليه حتّى يُصبح قوّة تتحكّم في كلّ وجوده وسلوكه، ووعياً إسلاميّاً رشيداً للواقع وما يزخر به من ظروف وملابسات ليكون شهيداً عليه.

**الفرق الثاني:** يُعتبر العالِم أو المرجع مقاماً يُمكن اكتسابه بالعمل الجادّ المخلص لله سبحانه، خلافاً للنبوّة

والإمامة فإنّهما رابطتـان ربّانيّتان بين الله تعالى والإنسان النبـيّ أو الإنسان الإمـام، ولا يُمكن اكتسـاب هذه الرابطة بالسعي والجهد والترويض.

**الفرق الثالث:** يُعتبر النبيّ والإمام معيّنين من الله تعالى تعييناً شخصيّاً، وأمّا المرجع العالِم فهو معيّن تعييناً نوعيّاً؛ أي إنّ الإسلام حـدّد الشروط العامّة للمرجع العالِم، وترك أمر التعيين والتأكّد من انطباق الشروط إلى الأمّة نفسها.

**الفـرق الرابـع:** أنّ الفرد يرتبط بالنبـيّ ارتباطاً دينيّاً، والرجـوع إليه فـي أخذ أحكام الله تعالـى عن طريقه يجعل منـه مسلّماً بالنبـيّ، وكذلك الحال بالنسبـة لارتباط الفرد بالإمـام. بينما ارتبـاط الفرد بالمرجع الفقيـه ـ على النحو المذكور منه ـ يُعتبر ارتباط مقلّد بمرجعه.

**الفـرق الخامـس:** أنّ النبـيّ أو الإمـام يجـب أنْ يكـون معصوماً، بينما المرجعيّـة الدينيّة عهد ربّانيّ إلى الخطّ لا إلـى الشخص المرجع العالِم؛ أي إنّ المرجع محدَّد تحديداً نوعيّاً لا شخصيّاً. وليس الشخص هو طرف التعاقد مع الله،

بـل المركز أي المرجعيّة الدينيّة (كمواصفات عامّة)، ومن هذه المواصفات (العدالة) بدرجة عالية تقرب من العصمة. فقد جاء في الحديث عن الإمام العسكريّ عليه السلام قوله: «**فأمّا من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه فللعوامّ أنْ يُقلّدوه**»[1].

ولكـنّ هـذه العدالــة ليس مـن الضـروريّ أنّ تبلغ درجة العصمــة، ولا أنّ يكـون المرجع الدينيّ مصونــاً من الخطأ بحال من الأحوال. ومن هنا كان هو بدوره بحاجة إلى شهيد ومقياس موضوعـيّ. قال تعالى: ﴿**لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ**﴾[2].

إذاً المـراد (بالعدالـة) هـو الوسطيّـة والاعتـدال فـي السلـوك، وهذا ما عبّر عنه القـرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ**﴾[3].

(١) وسائل الشيعة، ج ٢١٨، باب (١١) من أبواب القضاء، ص ٩٤.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

هذا بالإضافة إلى ضرورة توفّر شروط أخرى في الشهيد العالِم والمرجع، وذلك من قبيل:

١ - العلم والاستيعاب الجيّد للقرآن والسُّنَّة.

٢ - امتلاك الوعي والإدراك لظروف وأحوال الواقع القائم.

٣ - توفّر الكفاءة والجدارة النفسيّة الّتي ترتبط بالحكمة والتعقّل، والصبر والشجاعة.

٤ - القدرة على تجاوز المحن والمصائب بقلب صابر وفي مرضاة الله تعالى[1].

## الاندماج بين خطّي الخلافة والشهادة:

لقد تعرّضنا حتّى الآن إلى المعالِم العامّة للخطّين الربّانيّين، خطّ الخلافة (خلافة الإنسان على الأرض)، وخطّ الشهادة (شهادة النبيّ أو الإمام أو المرجع). وهذان

(١) قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٤٠).

الخطّان يندمجان في بعض مراحلهما ويتجسّدان في محور واحد يُمثّل الخلافة والشهادة معاً، وهذا ما سنتناوله من خلال عرض موجز لمراحل مسار الخلافة الربّانيّة على الأرض منذ خلق نبيّ الله آدم عليه السلام، مروراً بمرحلة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وصولاً إلى مرحلة العلماء والمراجع.

**أوّلاً: المرحلة التمهيديّة لدور الخلافة:**

لقد قُدّر لآدم عليه السلام أنّ يكون الممثّل الأوّل للإنسانيّة الّتي استخلفها الله تعالى على الأرض، ولكنّ حينما بدأ آدم حياته في الدنيا لم يمرّ بمرحلة الطفولة، واحتضانه ضمن عائلة ترعاه حتّى يرشد ويُصبح خليفة الله على الأرض، كما هو حال كلّ إنسان آخر، بل كان آدم بحاجة إلى دار حضانة استثنائيّة يجد فيها التنمية والتوعية الّتي تؤهّله لممارسة دور الخلافة على الأرض، سواء من ناحية فهم الحياة ومشاكلها الماديّة، أو من ناحية مسؤوليّاتها الخلقيّة والروحيّة.

وقد عبّر القرآن الكريم عن دار الحضانة الاستثنائيّة الّتي وُفّرت للإنسان الأوّل بـ(الجنّة)، إذ حقّق الله تعالى في

هذه الجنينة لآدم وحواء كلّ وسائل الاستقرار وكفل لهما كلّ الحاجات: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[1].

وكان لا بُدَّ من مرور فترة تنمو فيها تجربة هذَين الإنسانين (آدم وحواء)، وتصل إلى الدرجة الّتي تُتيح لهما أنْ يبدءا خلافتهما في الأرض، وكذلك كان لا بُدّ في هذه الفترة من تربية الإحساس الخُلقيّ، وزرع الشعور بالمسؤوليّة وتعميقه في نفس الإنسان، وذلك عن طريق امتحانه بما يُوجّه إليه من تكاليف وأوامر. وكان أوّل تكليف وُجّه إليه أنْ يُمسك عن شجرة معيّنة في تلك الجنينة، ترويضاً للإنسان الخليفة على التحكّم في نزواته، وكي لا ينساق مع الحرص المحموم على المزيد من زينة الحياة الدنيا ومتعها وطيّباتها؛ لأنّ هذا الحرص أساس كلّ ما شهده مسرح الحياة ـ بعد ذلك ـ من ألوان استغلال الإنسان للإنسان.

(١) سورة طه، الآية: ١١٨.

وقـد استطاعت (المعصية)[1] الّتي ارتكبها آدم عليه السلام بتناوله من الشجرة المحرّمة، أنْ تُحدث هزّة روحيّة كبيرة فـي نفسـه، وتُفجّر في أعماقـه الإحساس بالمسؤوليّة من خـلال مشاعر الندم، وطفق في هـذه اللحظة يخصف من ورق الجنّة ليضعه على جسده وليواري سَوأته ويستغفر اللّه تعالى لذنبه.

وبهـذا تكامـل وعيه عليه السلام فـي الوقـت الّـذي كانت قد نضجـت لديـه خبرات الحيـاة المتنوّعـة، وتعلّـم الأسماء كلّهـا فحـان الوقـت لخروجه من الجنّـة إلى الأرض الّتي استُخلـف عليها ليُمارس مسيرتـه نحو اللّه من خلال دوره في الخلافة.

**ثانياً: مرحلة الفطرة من الخلافة:**

لقـد بـدأت الجماعـة البشريّـة خلافتها علـى الأرض

(١) عصى آدم عليه السلام أمراً مولويّاً إرشاديّاً وليس أمراً مولويّاً تكليفيّاً، فالأوّل حين مخالفته لا يترتّب عليه عقوبة، بينما الثاني يترتّب على مخالفته عقوبة.

بوصفها أمّة واحدة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ﴾[1].

وقد أُنشئ المجتمع الموحّد والتوحيديّ على ركائز، والأساس الأوّليّ لتلك الوحدة ولهذه الركائز (الفطرة)؛ لأنّ الركائز الّتي يقوم عليها مجتمع التوحيد وتُمثّل أساس الخلافة على الأرض كلّها ذات جذور في فطرة الإنسان. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ...﴾[2].

فكان من أبرز معالم الفطرة الإنسانيّة، الإيمان بالله الواحد ورفض كلّ ألوان الشرك والطاغوت، بالتّالي فإنّ أيّ شرك وجبروت، وأيّ تناقض وتفرّق، هو انحراف عن الفطرة.

وطبعاً، تُشكّل تلك الفطرة الإنسانيّة الأساس لإقامة مجتمع التوحيد وممارسة دور الخلافة، وهذا ليس بمعزل عن خطّ الشهادة الّذي كان قائماً إلى جانبه وممثّلاً في

(١) سورة يونس، الآية: ١٩.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

الأنبياء عليهم السلام، حيث كانوا يُمارسون - في تلك المرحلة - مهمّة الشهيد الرّبّانيّ، مهمّة الهادي والموجّه والرقيب، قال تعالى: **﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ...﴾**(1).

نُلاحظ في الآية الكريمة أنّ مرحلة بعثة الأنبياء عليهم السلام ليحكموا بين النّاس جاءت عقب المرحلة الّتي كان النّاس فيها أمّة واحدة، تلك المرحلة الّتي كانت الخلافة والحكم فيها للجماعة البشريّة نفسها، وكان خطّ الشهادة للإشراف والتوجيه والتدخّل إذا تطلّب الأمر.

**وبعبارة أخرى:** بعد أنْ مرّت على البشريّة فترة من الزمن وهي تُمارس خلافتها من خلال مجتمع واحد، تحقّقت نبوءة الملائكة، وبدأ يبرز التناقض والتنافس والسيطرة والتملّك، فضلاً عن ظهور الفساد وسفك الدماء؛ وذلك لأنّ التجربة الاجتماعيّة نفسها وممارسة العمل على

(1) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

الأرض، نمّت خبرات الأفراد، ووسّعت إمكاناتهم فبرزت ألوان التفاوت بين مواهبهم وقابليّاتهم، ونجم عن هذا التفاوت اختلاف مواقعهم على الساحة الاجتماعيّة، وأتاح ذلك فرص الاستغلال لمن حظي بالموقع الأقوى. فانقسم المجتمع - بسبب ذلك - إلى أقوياء وضعفاء ومتوسّطين، ثُمّ إلى مُستغلّين ومستضعَفين، لتفقد بذلك الجماعة وحدتها الفطريّة، ويصدق قول الله تعالى في آية تحمّل الإنسانيّة للأمانة الّتي أشفقت منها السماوات والأرض إذ قال: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

**ثالثاً: مرحلة ثورة الأنبياء عليهم السلام لإعادة مجتمع التوحيد:**

بعد أنّ غرق المجتمع التوحيديّ في ألوان الاستغلال، وسيطرت عليه علاقات اجتماعيّة تُجسِّد هذه الألوان، ومشاعر نفسيّة تُبرِّر الانحراف عن الفطرة، وأساطير فكريّة وثنيّة تُمزِّق المجتمع شيَعاً وأحزاباً، كان لا بُدَّ في ظلّ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

هـذه الظروف من ثورة تُعيد المسيرة إلى طريقها الصالح، وتبني المجتمـع الموحّد من جديد على أساس أعمق وأوعى من أساس الفطرة (أو مرحلة الفطرة من الخلافة)، وتهيّئ الجماعة البشريّة لاستئنــاف دورها الربّانيّ في خلافة الله على الأرض.

لـذا كانـت انطلاقة ثـورة الأنبيـاء عليهم السلام مرتكـزة على أسـاس قـويّ، تمثّل فـي استئصــال المشاعر الّتـي خلّفتها ظروف الاستغـلال، واعتماد مشاعر أُخـرى أساساً للثورة؛ بمعنى أنّه بعد استئصال الحرص والطمع من نفوس النّاس، وتطهيرها، وإعدادها روحيّــاً ونفسيّاً، يأتي دور زرع مشاعر الإحسـاس بالقيـم الموضوعيّــة للعـدل والحـقّ، والقسط، والإيمان بعبوديّة الإنسان لله تعالى. هذا بالإضافة إلى إلغاء كلّ العلاقات الاجتماعيّة الّتي نشأت على أساس الاستغلال، لا لتنشىء علاقات مماثلة لفئة أخرى من المجتمع، بل لتُعيد إلى الجماعة البشريّة الشروط الضروريّة لممارسة الخلافة العامّــة على الأرض وتحقيق أهدافهــا الرشيدة. قال تعالى:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[1].

ومن هنا دعا الأنبياء - كما ذكرنا فيما سبق - إلى جهادَين:

**أحدهما:** الجهاد الأكبر (أو جهاد النفس) من أجل أنّ يكون المستضعفون أئمّة فينتصروا على شهواتهم ويبنوا أنفسهم بناءً ثوريّاً صالحاً.

**والآخر:** الجهاد الأصغر من أجل إزالة المستغلّين والظالمين عن مواقعهم.

إذاً، النبوّة ظاهرة ربّانيّة تُمثّل رسالة ثوريّة وعملاً تغييريّاً، وإعداداً ربّانيّاً للجماعة البشريّة، لكي تستأنف دورها الصالح. وتفرض ضرورة هذه الثورة أنّ يتسلّم شخص النبيّ الرسول الخلافة العامّة لكي يُحقّق للثورة أهدافها في القضاء على الجاهليّة والاستغلال، قال تعالى:

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[١] هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يبني القاعدة الثوريّة الصالحة من خلال إشراك الأمّة في أعباء الحكم - على مبدأ الشورى[٢] - ومسؤوليّات الخلافة الربّانيّة، لكي يمنّ الله عليهم ويجعلهم أئمّة ويجعلهم الوارثين، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

وبذلك يندمج خطّ الشهادة وخطّ الخلافة في شخص واحد وهو النبيّ، لذا اشترط الإسلام في النبيّ العصمة؛ لأنّه سوف يكون هو الشهيد وهو المشهود عليه في وقت واحد.

**رابعاً: مرحلة الإمامة في إكمال بناء مجتمع التوحيد:**

إنّ صنع مجتمع التوحيد ليس بالأمر الهيّن؛ لأنّه ثورة على الجاهليّة بكلّ جذورها، وتطهير للمحتوى النفسيّ والفكريّ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٢) قال تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٥٩).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

للمجتمع من جذور الاستغلال، ومشاعره، وواقعه. ومن هنا كان شوط الثورة أطول من العمر الاعتيادي للرسول القائد، لذا كان لا بُدّ للرسول أنْ يترك الثورة في وسط الطريق ليلتحق بالرفيق الأعلى وهي في خضمّ أمواج المعركة بين الحقّ والباطل.

ومن الواضح أنّ الحفاظ على الثورة - وهي بعدُ لم تُحقِّق بصورة نهائيّة مجتمع التوحيد - يفرض أنْ يمتدّ دور النبيّ في قائد ربّانيّ يُمارس خلافة الله على الأرض، وتربية الجماعة وإعدادها، ويكون شهيداً في الوقت نفسه، وهذا القائد الربّانيّ هو الإمام الّذي يجب أنْ يكون معصوماً، لأنّه يستقطب الخطّين معاً ويُمارس وفقاً لظروف الثورة خطّ الخلافة إلى جانب خطّ الشهادة معاً.

إذاً الإمام كالنبيّ شهيد وخليفة لله في الأرض من أجل أنْ يواصل الحفاظ على الثورة وتحقيق أهدافها، غير أنّ جزءاً من دور الرسول يكون قد اكتمل، وهو إعطاء الرسالة والتبشير بها، والبدء بالثورة الاجتماعيّة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ

**أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾**[1].

وعلى هذا الأساس وبأمر من الله تعالى عُيّن أوصياء اثنا عشر من أئمّة أهل البيت عليهم السلام، ليكونوا المؤتمنين على الرسالة والثورة الّتي جاء بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لا أنّ يأتوا بدين جديد أو رسالة خلاف رسالة الإسلام. ويُلاحظ في تأريخ العمل الربّانيّ على الأرض أنّ الوصاية كانت تُعطى غالباً لأشخاص يرتبطون بالرسول القائد ارتباطاً نسبيّاً أو لذرّيّته وأبنائه، وهذه الظاهرة لم تتّفق فقط في أوصياء النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، بل اتّفقت في أوصياء عدد كبير من الرسل، قال الله سبحانه: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ...﴾**[2].

هذا الاختيار النسبيّ أو القرابيّ لا يُشكّل أساساً للتوارث، بل يُشكّل عادة الإطار السليم لتربية الوصيّ، وإعداده للقيام

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٦.

بدوره الربّانيّ، وأمّا إذا لم يُحقّق هذا الإطار وظيفته التربويّة، فلا أثر له في حساب السماء، قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

## خامساً: مرحلة الفقهاء في حماية مجتمع التوحيد:

بالرغم من إبعاد الأئمّة عليهم السلام عن مركزهم الطبيعيّ في الزعامة الإسلاميّة، حيث تُمارس دور الخلافة والشهادة معاً، إلا أنّهم ظلّوا التجسيد الحيّ والثوريّ للإسلام، والقوّة الرافضة لكلّ ألوان الانحراف والاستغلال، وقد كلّف ذلك الأئمّة الأحد عشر عليهم السلام حياتهم الواحد بعد الآخر. هذا الواقع المرير دفع بالإمام الثاني عشر عجل الله فرجه الشريف - بأمر من الله تعالى - إلى التواري عن الأنظار، انتظاراً للّحظة المناسبة الّتي تتهيّأ فيها الظروف الموضوعيّة للظهور وإنشاء مجتمع التوحيد في العالم كلّه.

وما إنّ بدأ عصر الغيبة الكبرى حتّى بدأت مرحلة جديدة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

من خطّ الشهادة، تمثّلت في العلماء والفقهاء كامتداد للنبوّة والإمامة على هذا الخطّ، وتميّز في هذه المرحلة خطّ الشهادة عن خطّ الخلافة بعد أنّ كانا مندمجين في شخص النبيّ أو الإمام؛ وذلك لأنّ هذا الاندماج لا يصحّ إسلاميّاً إلا في حالة وجود فرد معصوم قادر على أنّ يُمارس الخطّين معاً، وحين تخلو الساحة من فرد معصوم فلا يُمكن حصر الخطّين في فرد واحد.

نعم، في حال كانت الأمّة محكومة للطاغوت ومقصيّة عن حقّها في الخلافة العامّة، فهذا الخطّ يُمارسه المرجع الفقيه ويندمج الخطّان حينئذ - الخلافة والشهادة - في شخص المرجع الفقيه، وبالتّالي لا يتوقّف الاندماج على العصمة؛ لأنّ خطّ الخلافة في هذه الحالة لا يتمثّل عمليّاً إلا في نطاق ضيّق وضمن حدود التصرّفات الممكنة للمرجع الفقيه وقيادته للأمّة حتّى تجتاز - أي الأمّة - حالة الإقصاء والظلم، وتُحرّر نفسها، حينها ينتقل خطّ الخلافة إليها، فتُمارس القيادة السياسيّة والاجتماعيّة من خلال

تطبيق أحكام الله تعالى، وعلى أساس الركائز المتقدّمة للاستخلاف الربّانيّ[1].

هكذا وزّع الإسلام في عصر الغيبة مسؤوليّات الخطّين بين المرجع الّذي يُمارس دور الاجتهاد الشرعيّ، وبين الأمّة الّتي تُمارس دور الشورى، فلم يشأ الإسلام أنْ تُمارس الأمّة خلافتها بدون شهيد يضمن عدم انحرافها، ويُشرِف على سلامة المسيرة، ويُحدِّد لها معالم الطريق من الناحية الإسلاميّة، ولم يشأ - أيضاً - من الناحية الأخرى أنْ يحصر الخطّين معاً في فردٍ ما لم يكن هذا الفرد مطلقاً أي معصوماً.

**بالنتيجة**: إنّ دور المرجع - شهيداً على الأمّة - هو دور ربّانيّ لا يُمكن التخلّي عنه، ودوره في إطار الخلافة العامّة للإنسان على الأرض، دور بشريّ اجتماعيّ يستمدّ قيمته وعمقه من مدى وجود الشخص في الأمّة وثقتها بقيادته الاجتماعيّة والسياسيّة.

(١) ذكرنا هذه الركائز في كتاب «خلافة الإنسان» من هذه السلسلة.

**الخلاصة:**

**أوّلاً**: إنّ الهدف الأساس لخلافة الإنسان على الأرض، هو الحكم بما أنزل الله سبحانه وتحقيق العدل، والمساواة، والاحترام المتبادل بين النّاس. وذلك في مقابل استئصال بؤر الفساد والظلم والاستغلال ومحاربتها.

**ثانياً**: يُعتبر خطّ الشهادة الركن الثاني في بناء المجتمع التوحيديّ. والشهيد بأصنافه الثلاثة (النبيّ - الإمام - الفقيه) هو بمثابة مرجع فكريّ وتشريعيّ من الناحية الإيديولوجيّة، ويُشرف على سير الجماعة وانسجامها مع الرسالة الربّانيّة، بحيث يتدخّل لتعديل المسيرة أو إعادتها إلى الطريق الصحيح حينما تنحرف.

**ثالثاً**: تقوم النظريّة القرآنيّة على أساس أنّ البشريّة كانت أمّة واحدة تُمارس دور الخلافة، وذلك إلى جانب شهادة الأنبياء والرسل عليهم السلام، وإشرافهم على مسار خلافة الأمّة، إلا أنّ انقسام المجتمع إلى شيع وأحزاب تطلّب الأمر الإلهيّ أن يدمج بين خطّي الخلافة والشهادة في شخص

النبيّ ومن ثمّ الوصيّ من بعده، واستمرّ هذا الأمر مع الفقيه المرجـع ضمن نظـام صلاحيّاتـه التشريعيّـة، حتّى تخرج الأمّـة من تحت ظلم الطغاة واستبدادهـم، حينها يعود حقّ الخلافة للأمّة.

# الفهرس